العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب الصليبية*

المقدمة:

تعرضت منطقة الشرق الإسلامي إلى هجمات شرسة من قبل الغرب الأوروبي في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، حيث لعبت الكنيسة دورا كبيراً في تشويه صورة المسلمين في أذهان الأوروبيين، وبالتالي نجح رجال الدين المسيحي في تحريض الناس للمشاركة في هذه الهجمات فيما عُرِف باسم الحملات الصليبية. وإن كان العامل الديني هو الطاغي على هذه الحملات حيث جاء الأوروبيون يحملون السيف والصليب، إلا أنَّ هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عن العامل الديني جعلت أمراء أوروبا وجنودهم يتوجهون إلى الشرق الإسلامي وعلى رأسها العامل الاقتصادي والعامل الاجتماعي.

ومما لا شك فيه أنَّ حالة الفرقة والصراع المذهبي والسياسي بين خلفاء وأمراء العالم الإسلامي آنذاك أدّت إلى نجاح الفرنجة في تحقيق أهدافهم، وتأسيس إمارات فرنجية في الشرق الإسلامي، فبلاد الشام ممزقة بين مجموعة من الأمراء والملوك المتصارعين للوصول إلى السلطة. أما القوة الأكبر والتي كان بإمكانها التصدي للزحف الفرنجي ولم تفعل فهي جيوش الخلافة الفاطمية. وهذا ما يؤكده المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة بقوله (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال) (١) ولم تبدأ الصحوة الإسلامية لمقاومة المحتل الفرنجي إلا ببزوغ نجم عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤ م الذي استطاع تحرير إمارة الرها.

وقد استمر الوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي ما يقارب قرنين من الزمان، وهذا ما دفعنا للبحث في طبيعة العلاقات التي قامت بين المسلمين والفرنج خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة. فالمتتبع لأحداث تلك الفترة سيجد أنّ العلاقات بين الطرفين تتأرجح ما بين الحرب والسلم. فالطابع العام لهذه العلاقات هو العداء الشديد وكراهية كل طرف للآخر، ودليل ذلك الدمار والتخريب والقتل والسلب والنهب الذي قام به الفرنج في كل مدينة دخلوها، حيث عاث الفرنج فساداً في مدن الشرق الإسلامي التي دخلوها. ومقابل ذلك نجد أنّ المصادر التاريخية تغص بكثير من الإشارات التي تدل على قيام المسلمين بالتصدي لهذه الهجمات الشرسة ومقاومتها بكل الطرق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وقد أسفرت هذه الجهود عن تمكن المسلمين من طرد هؤلاء الغزاة مع نهاية

* يتقدم فريق البحث بأسمى معاني الشكر والتقدير لجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز على دعمها المادي لهذا المشروع البحثي، كما يتقدم فريق البحث بجزيل الشكر لعمادة البحث العلمي بجامعة الأمير سطام ابن عبد العزيز على حسن تعاونها وما قامت به من تسهيلات من أجل إنجاز هذا البحث.

القرن ٧ هـ / ١٣م. ومع ذلك كله فلم تمنع حالة الحرب القائمة بين المسلمين والفرنج من قيام علاقات دبلوماسية وتعايش سلمي نوعاً ما سواء على الصعيد السياسي أم الاجتماعي والاقتصادي.

ويهدف هذا البحث إلى توضيح طبيعة العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة التواجد الفرنجي في الشرق الإسلامي سواء أكانت علاقات عدائية أم سلمية. وهذا سيقودنا للبحث في المصادر لمعرفة نظرة كل طرف للآخر من خلال توضيح صورة المسلمين في المصادر الغربية وكذلك صورة الفرنج في المصادر الإسلامية. كما سيتناول البحث صور من التعايش السلمي بين الطرفين. وكذلك أثر المسلمين على الفرنج وانتقال الكثير من معالم الحضارة الإسلامية إلى أوروبا نتيجة التمازج الحضاري بين الطرفين خلال فترة الحروب الصليبية.

المسلمون والفرنج في الشرق:

شهدت بلاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى فترة من الحروب المدمرة عُرفت باسم الحروب الصليبية وكان أول اتصال بين المسلمين والفرنج القادمين من أوروبا في ساحات القتال، إذ قَدِم الفرنج نحو الشرق وهم يحملون روح العداء والبغضاء للمسلمين لما سمعوه من رجال الدين المسيحي من قيام المسلمين بالاعتداء على إخوانهم المسيحيين في الشرق. ورغم قوة المسلمين في ذلك الوقت وضعف الحملة الفرنجية الأولى على بلاد الشام إلا أنّ الفرنج استطاعوا التغلب على المسلمين مما دعا المؤرخ ابن تغري بردي للتعجب من ذلك بقوله (والعجب أنّ الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف والجوع وعدم القوت حتى أنهم أكلوا الميتة وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم) (٢) وبالتالي فإن انقسام المسلمين في ذلك الوقت وتفرقهم وعدم توحيد كلمتهم لمقاومة هذا الخطر أدى إلى نجاح الفرنج في الاستيلاء على المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى. ويتساءل ابن تغري بردي عن سبب عدم خروج العساكر المصرية للدفاع عن الشام بقوله (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال) (٣). فإذا عرفنا أنّ أمراء بلاد الشام كانوا يدينون ولو اسميا للخلافة العباسية السنية؛ يتضح لنا سبب وقوف قائد الجيوش الفاطمية الأفضل بن بدر الجمالي موقف المتفرج من الأحداث حتى سقطت القدس بيد الفرنج، ألا وهو الخلافات المذهبية بين الخلافة الفاطمية الشيعية والخلافة العباسية السنية.

صورة المسلمين في المصادر الغربية:

قبل الدخول في تفاصيل العلاقات بين المسلمين والفرنج أثناء الحروب الصليبية، لا بد من إلقاء نظرة سريعة على رؤية الفرنج للمسلمين من خلال بعض المصادر الغربية وهذا سيساعدُ في فهم طبيعة العلاقات بين الطرفين. وقد وصف فوشيه الشارتري(٤) المقاتلين الأتراك في أحدى المعارك التي شاهدها أثناء توجهه مع بلدوين من الرها إلى القدس بقوله (.... وهم يصرخون كالكلاب أو كالذئاب وسيوفهم مسلولة).(٥) ويقول في مكان آخر عن المسلمين (وأغار علينا هؤلاء القوم الخسيسون بغتة) (٦). ثم تبدو النظرة العدائية للإسلام والمسلمين عندما يقول فوشيه الشارتري (... عندما بعثر هذا الجنس الذي لا دين له الفرنجة غير الحذرين) (٧). كما نعت المسلمين بصفة الوحشية تارة(٨) وبالوثنية تارة أخرى في مواقع مختلفة من كتابه (٩)

أما المؤرخ وليم الصوري(١٠) فقد أشار إلى المسلمين بقوله (.... خصوم الملة وأعداء اسم المسيح) (١١). أما الرحالة الأوروبي سايولف (Saewulf) فيصف العلاقات بين المسلمين والفرنج بقوله (وعلى الجانب الآخر لنهر الأردن تقع الجزيرة العربية وهي بلاد تتسم بالعداء للمسيحيين ولا تتسم بالود لكل من يعبد الله) (١٢). ورغم أنّ الرحالة سايولف زار بيت المقدس في بداية الاستقرار الفرنجي في القدس سنة ٤٩٦-٤٩٧ هـ / ١١٠٢ - ١١٠٣ م ، إلا أنه لم يتحدث عن المذبحة التي ارتكبها الفرنج بحق المسلمين داخل بيت المقدس(١٣). وهذا دليل واضح على عدم موضوعتيه، ومن جهة أخرى يدل على عدم اكتراثه بالدماء التي سفكها الفرنج في ساحات المسجد الأقصى. كما أنّ بعض المؤرخين الغربيين كأمثال فوشيه الشارتري ووليم الصوري والحاج سايولف وصفوا المسلمين الذين كانوا يقاومون الفرنجة بأنهم لصوص وقطاع طرق ينصبون الكمائن لقتل الحجاج المسيحيين (١٤).

كما أنّ الحاج الروسي دانيال الراهب (Daniel) زار فلسطين سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦ م، وذكر في رحلته أنّ المسلمين كانوا يقومون بذبح الحجاج على الطريق (١٥) ويبدو التناقض فيما ذكره دانيال الراهب عن اعتداء المسلمين على الحجاج عندما يتحدث في كتابه عن قيامه بزيارة عدد من المدن الفلسطينية حيث تنقل بين بيت المقدس والناصرة وعكا وحيفا ونابلس (١٦) ومع ذلك لم يعتدِ عليه أحد مما يدل على وجود تناقض واضح فيما يرويه من أحداث.

وهذه النصوص وغيرها توضح لنا مدى الحقد والعداء الذي يحمله الفرنج للمسلمين لدرجة أنهم وصفوهم بأنهم لا دين لهم كما وصفوهم بصورة عارية عن الصحة عندما ذكروا أنهم يقتلون الحجاج المسيحيين. وهذا دليل على عدم موضوعيتهم فيما ينقلونه إلى المسيحيين في الغرب الأوروبي عن صورة المسلمين في الشرق. فكيف

يصفون المسلمين بالوحشية. وهم غزاةٌ مُحتلين ارتكبوا أبشع الجرائم بحق المسلمين في عقر دارهم.

صورة الفرنجة في المصادر الإسلامية:

فمن خلال الاطلاع على بعض المصادر الإسلامية التي تتحدث عن فترة الحروب الصليبية نجد أنها تصف الفرنجة بصفات نتبين منها مدى الحقد الذي يكنه المسلمون للفرنج لما ارتكبوه من الجرائم بحق المسلمين الذين تمّ الاعتداء عليهم في أرضهم ومقدساتهم، فأبو شامه يصف الملك عموري بقوله (وفي سنة ٥٦٨هـ اتفق خروج كلب الروم اللعين في جنوده الشياطين بقصد الغارة على ناحية زرع من حوران) (١٧) ويقول أبو شامة عن أسر جوسلين أحد أمراء الفرنج (وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وكان مُقدّماً على الفرنج في حروبهم يعلمون من شجاعته وشدة عداوته للملة الإسلامية وقسوة قلبه على أهلها) (١٨). كما وصف الفرنج بالكفرة والملاعين في عدة مواضع (١٩).

ورغم أن أسامة بن منقذ كان قد عاش بين الفرنج وخالطهم وكان له أصدقاء منهم إلا أنه يقول عنهم (فاجتمع الفرنج لعنهم الله) (٢٠). ثم يستطرد قائلاً (والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة) (٢١). ويصف أسامة ابن منقذ روجار بقوله (وكانت انطاكية لشيطان من الإفرنج يقال له روجار) (٢٢). وتبدو نظرة أسامة العدائية للإفرنج عندما شبههم بالبهائم عندما يقول (... وهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل) (٢٣).

فمن خلال ما سبق نجد أن كلاً من الإفرنج والمسلمين يُكن العداء والبغضاء للطرف الآخر، ولكن هذا كله لم يمنع من قيام علاقات بين الطرفين كما سيتبين في ثنايا هذا البحث.

سيرة الفرنج في المناطق التي دخلوها:

رافق دخول الإفرنج إلى الشرق الإسلامي الكثير من الويلات والدمار الذي حل بالمنطقة على أيدي الغزاة القادمين من الغرب، وتعد الجرائم والمذابح التي ارتكبوها بحق المسلمين جزءاً مهماً من طبيعة العلاقات التي سادت بين الطرفين إثناء الحروب الصليبية. فقد جاء الفرنج إلى ديار الإسلام وهم يحملون السيف والصليب، وفي نفس الوقت يحملون في أنفسهم الحقد على دين الإسلام مما جعلهم يرتكبون أبشع الجرائم بحق المسلمين.

وممن تحدث عن أعمال الفرنج وجرائمهم المؤرخ فوشيه الشارتري فيتحدث عن سقوط مدينة القيصرية (٢٤) سنة ١١٠١م بقوله ورأيت كثيراً من جثث الشرقيين الذين قتلوا هناك وقد أزعجنا كثيراً رائحة الجثث المتعفنة وقد تم حرق هؤلاء التعساء للعثور على الدنانير الذهبية التي ابتلعوها....) (٢٥).

أما وليم الصوري فيشير لأعمال الفرنج الوحشية أثناء حصار نيقيا (٢٦) بقوله (ورغبة في بث الفزع في قلوب الأعداء فقد صدر الأمر لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس الترك المقتولين إلى داخل المدينة) (٢٧) وقد حاصر تانكرد مدينة المصيصة (٢٨) والتي كانت تتميز بأسوارها وأبراجها وكثرة سكانها ومع ذلك تمكن تانكرد من الاستيلاء عليها ويصف وليم الصوري دخول الفرنج للمدينة بقوله (.... وبعد الحصار وغارات عديدة تمكن من الاستيلاء عليها في أيام قلائل بمعونة الرب وحكّم السيف في رقاب أهلها) (٢٩) وتبدو قسوة الفرنج بعد دخولهم مدينة أنطاكيا إذ يقول وليم الصوري في أحداث سنة ١٠٩٨م (فاينما التفت فثم مذبحة وآلام مبرحة وعويل نساء وأرباب بيوت يجري عليهم القتل هم وأهلهم وطغى على الجنود جنون القتل والنهب فلم يراعوا ذكراً ولا أنثى ولم يوقروا كبيراً لسنة وراحت السيوف تعمل في الأمهات وأطفال النبلاء ويقال أنه قُتل في هذا اليوم ما يربوا على عشرة آلاف من الأهالي) (٣٠)

أما أعمال الفرنج في معرة النعمان (٣١) فيذكرها ابن الأثير ضمن أحداث سنة ٤٩٢ هـ بقوله (فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة الف وسبوا السبي الكثير) (٣٢)، في حين أشار ابن القلانسي إلى دخول الفرنج إلى معرة النعمان بقوله (وملكوا البلد بعد صلاة المغرب وقتل فيه خلق كثير من الفريقين) (٣٣). فمع أن ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) أقرب إلى زمن الأحداث إلا أنه لم يذكر عدد القتلى في المعرة ويبدو لي أنّ ابن الأثير بالغ في تقدير عدد القتلى ولكن هذه المبالغة تشير إلى مدى الكره والحقد الذي ملأ صدور هؤلاء المقاتلين الذين هاجموا الشرق الإسلامي وقيامهم بسفك الدماء في جميع المناطق التي دخلوها.

أما المذابح التي ارتكبها الفرنج بحق المسلمين في أعقاب دخولهم القدس فإن المصادر العربية والغربية تفيض بالإشارات التي تدل على قسوة ما قاموا به وعن ذلك يقول فوشيه الشارتري (... فدبّ الرعب الهائل في قلوب الكفار واستعاضوا عن جرأتهم السابقة بأن ولّوا الأدبار وفروا في أزقة المدينة وشوارعها الضيقة وعندما رأى الجنود ذلك هبوا وهم في قمة الابتهاج داخلين المدينة بأسرع ما في قدرتهم يلاحقون ويذبحون أعدائهم الأشرار بلا توقف) (٣٤).

ولم يراع الفرنج حُرمة الأماكن المقدسة وهذا ما يرويه فوشيه الشارتري وهو شاهد عيان على ما حدث إذ يقول (فرَّ بعض هؤلاء إلى برج داود وحشد آخرون أنفسهم في هيكل سليمان ومعبد الرب وفي ساحة هذا البنيان شنّ رجالنا هجوماً عنيفاً على

الشرقيين فلم يكن لهم من سيوفنا مفر... ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ولم يرحموا امرأةً ولا طفلاً) (٣٥). أما يعقوب الفيتري فيصف دخول الفرنج إلى القدس بقوله (وتم الاستيلاء على بيت المقدس، بجهد عظيم وسفك دماء لأجل السيد المسيح) (٣٦) وهكذا نجد أنَّ الغربيين أنفسهم أشاروا لبشاعة ما حدث من جرائم بحق المسلمين فذكروها وأنفسهم تقيض بالسعادة لما حدث لأعداء المسيح على حد زعمهم. كما أفرد المؤرخون المسلمون صفحات من مصنفاتهم للحديث عن احتلال الفرنجة للقدس، فابن القلانسي يشير إلى ذلك بقوله (فانهزم الناس وهجموا البلد فملكوه وانهزم بعض أهله إلى المحراب وقُتل خلقٌ كثير...) (٣٧). أما ابن الأثير فقد تحدث بصورة أكثر تفصيلاً عن دخول الفرنج إلى القدس ومما قاله (.. ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين واحتمى جماعة منهم بمحراب داود وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين والعلماء والعُبَّاد والزُهاد) (٣٨)

وهكذا نجد أنَّ الفرنج لم يراعوا حرمة الأماكن المقدسة بل ارتكبوا الكثير من الجرائم بحق المسلمين العُزَّل داخل المسجد الأقصى وقبة الصخرة بدم بارد ودون تمييز بين شيخ أو امرأة أو طفل وهذا ما يؤكده سبط بن الجوزي بقوله (.. فانهزم المسلمون وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى فاحتموا بهما فهجموا عليهم فَحُكِي أنهم قتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثله وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء) (٣٩) وبذلك نجد أنّ هناك اختلافا بين المؤرخين في تقدير عدد قتلى المسلمين في ساحات المسجد الأقصى، ويرى البيشاوي أنّ الرواية الفرنجية التي تقول بأنّ عدد القتلى في ساحات المسجد الأقصى وصل إلى عشرة آلاف اقرب إلى الصواب من الرواية التي تذكرها المصادر الإسلامية، والتي يصل فيها عدد القتلى إلى سبعين ألفاً، وفي رواية أخرى مائة ألف. ويبرر البيشاوي ذلك بقوله (خاصة إذا عرفنا أنّ مساحة المدينة آنذاك كانت كيلو متر مربع وعدد سكانها في منتصف القرن الخامس الهجري حوالي عشرون ألف نسمة)(٤٠)

ولو تتبعنا سيرة الفرنجة وكيفية معاملتهم للمسلمين في المناطق التي دخلوها لتبين لنا أنّ الدمار والتخريب ونقض العهود والمواثيق يحل معهم أينما نزلوا. فابن القلانسي يصف دخول الفرنج إلى مدينة قيسارية سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م بقوله (وفي آخر رجب فتحوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها. ..) (٤١) وفي أحداث سنة ٤٩٧ هـ يتحدث عن دخول الفرنجة إلى ثغر الجبيل بقوله (ونزلوا على ثغر جبيل فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالأمان ، فلما حصل في ملكتهم غدروا بأهله ولم يفوا بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب) (٤٢) وكذلك قام الفرنجة بأعمال النهب والقتل عندما دخلوا طرابلس وبيروت وغيرها من المدن (٤٣) ويشير ابن كثير إلى قسوة الفرنج بقوله (وفي سنة ٦١٤ هـ تمكن الفرنج من احتلال بيسان فنهبوا ما كان فيها من الغلات والدواب وقتلوا وسبوا شيئاً كثيرا ثم عاثوا في الأرض فساداً يقتلون وينهبون ويأسرون) (٤٤) وكذلك فعل الفرنجة عندما

احتلوا مدينة بلبيس من أعمال مصر حيث يقول أبو شامة في كتابه عيون الروضتين في أحداث سنة ٥٦٤ هـ (وفيها اتجه الفرنج للاستيلاء على مصر فتمكنوا من احتلال مدينة بلبيس بعد مقتلة عظيمة وأسروا ونهبوا) (٤٥)

كما أنّ القوافل التجارية لم تسلم أيضا من اعتداءات الفرنجة ففي أحداث سنة ٥٠٢ هـ يذكر الذهبي أنّ الفرنجة هاجموا قافلة تجارية كانت متوجهة من دمشق إلى الديار المصرية (٤٦) وفي أحداث سنة ٥٠٤ هـ يذكر ابن القلانسي أنّ الفرنجة هاجموا قافلة تجارية فاستولوا على الأموال وأسروا التجار (٤٧) وفي سنة ٥٠٦ هـ أغار الفرنجة على قافلة كانت متوجهة من دمشق إلى مصر وفيها الكثير من الأموال فاستولوا على الأموال واسروا الرجال (٤٨)

أما عن نقض الفرنجة للعهود والمواثيق فالمصادر مليئة بالإشارات التي تدل على عدم وفاء الفرنجة بالعهود والمواثيق التي أبرموها مع المسلمين ومن ذلك قول ابن القلانسي عن دخول الفرنجة إلى معرة النعمان سنة ٤٩٢هـ (وانهزم الناس إلى دور المعرة للاحتماء بها فأمنهم الإفرنج وغدروا بهم ولم يفوا بشيء مما قرروه ونهبوا ما وجدوا) (٤٩) ويشير ابن الأثير إلى نقض الفرنجة للعهود والمواثيق التي أعطوها لأهالي مدينة جبيل بقوله (فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانا وسلّموا إليهم فلم تفِ الفرنج لهم بالأمان وأخذوا أموالهم. ..) (٥٠) ويقول الذهبي عن نقض الفرنج للعهود (وفي سنة ٥٠٤ هـ نكث صاحب القدس هدنة الدمشقيين) (٥١).

معاملة الأسرى:

ومن الجوانب المهمة التي تدخل في إطار العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال الحروب الصليبية جانب معاملة كل من الطرفين للأسرى. حيث أن الأسرى المسلمين عاشوا بين الفرنج وأطلعوا على أخلاقهم وعاداتهم وكذلك الحال بالنسبة لأسرى الفرنج الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي وتأثروا بالمسلمين.

ويُقدَم فوشيه الشارتري وصفاً لمعاملة المسلمين لأسرى الفرنج بقوله (واحتفظ الشرقيون ببعض أسرى الفرنجة وصلبوهم على مرأى من الجميع ورموهم بالسهام وقتلوا بعضهم وابقوا آخرين أحياء في أسر بغيض) (٥٢)

ويبدو أن هذا الوصف بعيداً عن الدقة وتنقصه الموضوعية؛ إذ أنَّ ما عُرِف عن أخلاق المسلمين في معاملة الأسرى يتناقض مع ما جاء به فوشيه الشارتري. وربما قدَّم هذا الوصف ليبرر ما فعله الفرنج بأسرى المسلمين من جهة ولإثارة الحقد في نفوس الفرنج ضد المسلمين وتشويه صورة المسلمين من جهة أخرى. بحيث يصف معاملة الفرنج لأسرى المسلمين بقوله (ولما أسر الفرنجة النساء باعوهن واشتروهن فيما بينهم الجميلة منهن والقبيحة وكذلك الرجال) (٥٣)

وقد ذكر ابن شداد موقف صلاح الدين الأيوبي من أسرى الفرنج في أعقاب معركة حطين بقوله: (ولقد دخل عليه البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الفرنج جفري بَعد أن وقعوا في الأسر في حطين، فشكا الملك العطش فاحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه ثم ناوله أرناط فقال صلاح الدين للترجمان قل للملك: أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي...) (٥٤) وسبب موقف صلاح الدين من أرناط أنه كان قد نذر على نفسه أن يقتل أرناط إذا ظفر به لما قام به من أفعال شنيعة بحق المسلمين ونظراً لكثرة نكثه بالعهود ولذلك قام بقتله بعد حطين (٥٥) فلما رأى الملك جفري ما حلَّ بأخيه أرناط من القتل ظن أنه مقتول فاستحضره السلطان وطيّب قلبه وقال: (لم تَجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز حَدَّهُ فجرى ما جرى) (٥٦).

وهذه إشارة واضحة لمعاملة المسلمين للأسرى الفرنج بالحسنى وعدم الإضرار بهم. بحيث تعتبر معاملة الأسرى جزءاً من العلاقات التي قامت بين المسلمين والفرنج إثناء الحروب الصليبية.

التعايش السلمي بين المسلمين والفرنج أثناء الحروب الصليبية:

قبل أن نبدأ بالحديث عن مصطلح التعايش السلمي بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب الصليبية لا بدّ من طرح عدة أسئلة؛ لتكون مدخلاً لنا لدراسة فترات السلم بين الطرفين: فهل استطاع المسلمون أن ينسوا ما مرّ بهم من ويلات ودمار وقتل وتشريد على أيدي الفرنجة الذين عاثوا في مدن الشرق الإسلامي فساداً ؟ وهل تغيرت نظرة المسلمين للفرنجة المحتلين؟ أم أنّ هناك أسبابا أخرى دعت كلا الطرفين أحيانا لبناء علاقات قد تكون بظاهرها سلمياً؟

فإذا عرفنا أنّ الوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي استمر ما يقرب من قرنين من الزمان، فإنّ علينا أن نقر بوجود علاقات ومصالح تجمع بين الطرفين. حيث سادت بين المسلمين والفرنج فترات من التعايش السلمي ولفترات محدودة؛ أملتها ظروف كلا الطرفين وحاجة كل منهما للآخر. ويبدو أنّ بعض من كتب عن هذه الفترة التاريخية حمّل النصوص التاريخية أكثر مما تحتمل فميخائيل جميعان مثلاً يصف هذا التعايش السلمي بقوله (كان للعلاقات الاجتماعية التي سادت بين العرب والفرنج في فترات السلم الطويلة والاحتكاك بينهما في الشرق أثرها الكبير في تهذيب نفوس الفرنج والتخفيف من خشونة أخلاقهم مما دعا لقيام علاقات ودية بين الطرفين) (٥٧).

ولابد لنا من ذكر نماذج من هذه العلاقات لتوضيح ما إذا كانت هذه العلاقات تعايشاً سلمياً أم علاقات اضطر كلا الطرفين لممارستها. فرغم الحروب التي كانت تدور بين المسلمين والفرنج إلا أنّ هذا لم يمنع من قيام هذه العلاقات. والمصادر الإسلامية

والغربية تتحدث عن مثل هذا النوع من العلاقات فعلى مستوى القادة يذكر فوشيه الشارتري أن أمير طرابلس كان يرسل إلى خيمة اللورد بلدوين الخبز والخمر والعسل المصفى وأكباش الضأن المطهية (٥٨). وكذلك فعل أمراء بيروت وصيدا وصور وعكا (٥٩). وعندما يتحدث فوشيه الشارتري عن أحداث سنة ١١١٥م يشير إلى أنّ طغتكين أتابك دمشق أحلّ السلام بينه وبين الملك بلدوين وروجر أمير أنطاكية (٦٠) وتتحدث المصادر عن قيام الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية بإرسال سفارة إلى الفرنج أثناء حصارهم لأنطاكية يطلب منهم الاستمرار في حصار المدينة ووعدهم بأن يقدّم لهم الجند والذخيرة. وحاول السفراء كسب ودّ قادة الفرنج وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين (٦١). ويؤكد ابن الأثير ذلك بقوله (أنّ أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة السلاجقة راسلوا الفرنج يدعونهم للخروج إلى الشام ليتملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم) (٦٢).

وفي زمن العاضد الفاطمي قامت علاقات ودية بين شاور وزير الدولة الفاطمية وبين الفرنج أسفرت عن إقامة مجموعة صليبية في القاهرة والإسكندرية مدة تقرب من عامين (٦٣).

كما قام طغتكين أتابك دمشق بتوقيع اتفاقية مع الملك بلدوين الأول قضت بتقسيم السواد وجبل عوف مثالثة بينه وبين الصليبيين وبين الفلاحين العرب (٦٤).

وقد وصل الأمر إلى حد قيام الأمير تانكرد صاحب أنطاكية بطلب النجدة من الملك رضوان صاحب حلب لمحاربة جاولي وجوسلين الفرنجي فما كان من الملك رضوان إلا أن لبى النداء وأمد تانكرد بعسكر حلب (٦٥).

ونجد أنَّ بعض المعارك التي كانت تدور بين الفرنج والمسلمين انتهت بتقرير الموادعة وإحلال السلام بين الطرفين على شروط يتفقون عليها وهذا ما حدث في حصار مدينة رفنيّة (٦٦) سنة ٥٠٣هـ بحيث اتفق الطرفان بعد مراسلات بينهما على تقرير الموادعة و المسالمة ويكون للفرنج الثلث من استغلال البقاع وبعض الحصون (٦٧) ولكنّ الفرنج كعادتهم لا يلتزمون بالعهود والمواثيق حيث لم يلبثوا طويلا ثم عادوا ونكثوه هذه المعاهدة وهذا ما يعبر عنه ابن القلانسي بقوله: (فأقاموا على ذلك مدة يسيرة فلم يلبثوا على ما تقرر وعادوا إلى رسمهم في الفساد والعناد) (٦٨)

فمن خلال ما تقدم نلاحظ أنه رغم الحروب التي كانت تدور بين الفرنج والمسلمين إلا أنّ هذا لم يمنع من قيام علاقات دبلوماسية على صعيد القادة والأمراء ويمكن إرجاع ذلك لضعف المسلمين وتفككهم وعدم اتحادهم في جبهة واحدة لمقاومة الفرنج. وفي حالات أخرى كان المسلمون بحكم ضعفهم وتفرقهم مضطرين لقبول ما

يمليه الفرنج من شروط بحكم قوتهم الناتجة من تشتت كلمة المسلمين في بعض الفترات.

ولم تقتصر العلاقات السلمية بين الفرنج والمسلمين على عقد الهدن والمعاهدات بل تعدى ذلك إلى قيام ملوك الفرنج باستخدام المسلمين في بلاطهم (٦٩) ومن أمثلة ذلك ما يرويه ابن جبير عن الملك غليان الفرنجي بقوله (وشأن ملكهم غليان شأن عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وهو كثير الثقة بالمسلمين حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين) (٧٠). ويبدو أنّ ابن جبير بالغ في الوصف؛ لأنّ هذا يعود لحاجة الفرنج لاستخدام المسلمين في بعض المهن وليس من باب حسن السيرة مع المسلمين.

ومن أمثلة العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء حصار قلعة شقيف أرنون (٧١) من حسن استقبال لصاحب قلعة الشقيف واحترامه وإكرامه (٧٢).

وهذا ما فعله أيضاً مع صاحب صيدا وصاحب أنطاكية حيث أكرمهم وأكل الطعام معهم لدرجة أن صلاح الدين الأيوبي عرض على صاحب صيدا الفرنجي الدخول في الإسلام (٧٣). ويشير يعقوب الفيتري إلى حسن معاملة صلاح الدين للفرنج بقوله (وكان صلاح الدين حكيماً في تصرفه كما كان سخياً مبسوط اليد ليس فقط بالنسبة لشعبه وإنما للبعض منا الذين استطاع أن يجتذبهم لصفه بالهدايا والوعود) (٧٤). ومثل هذه الإشارات لا تعني أنّ نظرة صلاح الدين الأيوبي للفرنج قد تغيرت؛ لأنه في نفس الوقت الذي كان يعقد معهم الهدن كان يجهز جيوشه لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الفرنجي. وعليه يجب علينا عدم الخلط بين مفهوم العلاقات الدبلوماسية والتعايش السلمي.

ويشير يعقوب الفيتري في كتابه تاريخ بيت المقدس إلى قيام علاقات سلمية بين الطرفين بقوله (ولكن هؤلاء المسلمين اصبحوا لا يخشون أحفاد هؤلاء القدامى كما قاموا بعقد معاهدات مع المسلمين وكانت تغمرهم السعادة من أجل العيش بسلام مع المسلمين) (٧٥). ثم يشير إلى أنّ بعض السوريين كانوا يعملون كمرشدين ومستشارين للحجاج الغرباء من أمراء الفرنج) (٧٦). وقيام المسلمين بإرشاد الحجاج المسيحيين دليل على انهم يعاملونهم بأخلاق الإسلام السمحة ومن جهة أخرى تثبت للغرب الأوربي أنّ ما ذكره بعض الكتاب الغربيين من أمثال الشارتري ووليم الصوري والحاج سايولف ودانيال الراهب من قيام المسلمين بالاعتداء على الحجاج المسيحيين أمرٌ عارٍ عن الصحة ويأتي هذا الدحض على لسان ابن جلدتهم المعاصر للأحداث يعقوب الفيتري الذي كان أسقفا لمدينة عكا ومن ثم بطريركاً لبيت المقدس. وهذا ما يؤكده أيضاً الرحالة

الألماني بورشارد في وصفه للمسلمين بقوله (وهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون) (٧٧).

ومع ما كان يكنه المسلمون من كراهية للفرنج إلا أنهم تعاملوا معهم في بعض المواقف بروح الإسلام السمحة ومثال ذلك أنّ امرأة فرنجية جاءت إلى صلاح الدين تشتكي له وقوع طفلتها بين أيدي اللصوص المسلمين فما كان منه إلا أن أرسل من اشترى ابنتها من سوق العسكر ثم أمر بإعادة المرأة الفرنجية وطفلتها إلى معسكر الفرنج. (٧٨).

وأثناء زيارة ابن جبير إلى بلاد الشام وصف لنا العلاقات السلمية بين المسلمين والفرنج بقوله (ومن العجيب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم. .... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب) (٧٩).

فابن جبير يروي لنا مشاهداته من خلال زيارته للمدن الشامية خلال الفترة ٥٧٨ هـ إلى ٥٨١ هـ ، ولكن علينا أن لا نُحمّل هذا النص أكثر مما يحتمل؛ لأنّ مشاهدات ابن جبير خلال هذه السنوات القليلة لا يمكن تعميمها على كامل فترة الوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى لا بد وأنّ وراء هذا اتفاقيات بين الطرفين لتحييد التجارة وحرية تنقل الأفراد مما يحقق مصالح مشتركة للطرفين بحيث تكون التجارة آمنة رغم وجود حروب بين الطرفين. علماً بأن الفرنجة كانوا يعتدون أحيانا على القوافل التجارية وهذا ما تم توضيحه سابقاً. وقول ابن جبير (والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال) فيه مبالغة كبيرة ويناقض ما كان عليه حال المسلمين والفرنج خلال هذه الفترة.

ويشير أسامة بن منقذ إلى قيام علاقات صداقة بينه وبين جماعة من الفرنج بحيث ورد في كتاب الاعتبار إشارات كثيرة لمثل هذا النوع من الصداقات ومن ذلك قول صاحب الكتاب (وكان في عسكر الملك فارس محتشم إفرنجي وصار ملازم لي ويدعوني (أخي) بيننا المودة والمعاشرة) (٨٠). ثم يقول أسامة بن منقذ صاحب الاعتبار (فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي...) (٨١) ويقول أيضاً (وكان بأنطاكية الرئيس تادرس وبيني وبينه صداقة) (٨٢). ثم يُعبر أسامة بن منقذ عن التعايش السلمي بين الفرنج والمسلمين بقوله أن أحد أمراء الفرنج وهو صاحب حصن المنيطرة (٨٣). كتب إلى عمه يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى أصحابه فأرسل إليه طبيباً مكث بين الفرنج عشرة أيام ثم عاد (٨٤)

وعندما أصيب بودوان بن عموري ملك بيت المقدس بالجذام فقد استقدم طبيباً من مصر لمعالجة ابنه (٨٥). ويبدو أن أطباء الفرنج لم يكونوا على المستوى الذي يسمح لهم بمعالجة الأمراض على النحو المطلوب مما دفع أمراء الفرنج إلى اللجوء لأطباء المسلمين عندما يصاب أحد منهم بمرض (٨٦)

وإشارات ابن منقذ لقيام صداقة بينه وبين الفرنجة تعدّ حالة فردية لا يمكن تعميها، وأما قيام الأطباء المسلمين بمعالجة مرضى الفرنج فيبدو أنه من باب العلاقات الدبلوماسية التي كان يمليها ميزان القوى والمصالح المتبادلة بين الطرفين في تلك الفترة الزمنية.

ويشير الغوانمة إلى أنّ اختلاط الفرنجة بالمسلمين خلال الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها الفرنجة في الشام أدت إلى ولادة جيل من الفرنجة أقل تعصبا من الفرنجة الأوائل ومن هنا خفّت لدى هؤلاء نزعة البغضاء والتعصب نتيجة للاختلاط وحالة الجوار التي كانوا يعيشونها مع المسلمين، بالإضافة إلى أنّ الساحل الشامي كان منفتحا على أوروبا ، ولكنه منغلق على الداخل. فكان الفرنج بحاجة ماسة إلى وجود علاقات اقتصادية وتجارية مع المسلمين في الداخل. (٨٧) وهذا ما يجعلنا نقول أنّ هذه العلاقات السلمية كانت بدافع المصالح المشتركة لكلا الطرفين وخلال فترات زمنية محدودة ولا يمكن تعميها.

أما قول زكي النقاش (أصبح الفرنج والمسلمين يعيشون راضين مطمئنين لولا غارات وغزوات كان يقوم بها بعض الإقطاعيين وأرباب الحرب والقتال) (٨٨) فينطوي على مبالغة كبيرة لما آلت إليه العلاقات بين المسلمين والفرنج. فالمسلمين لم ينسوا يوما أنّ هؤلاء الفرنجة محتلين ولا بدّ من طردهم من بلاد المسلمين. ويبدو أن الفرنج كانوا يتوقون للوصول إلى حالة من الاستقرار في الشرق الإسلامي ليجنوا مكاسب أكثر بعد المعارك الطويلة التي خاضوها ضد المسلمين للاستيلاء على كثير من المدن الشامية. ويعبر فوشيه الشارتري عن ذلك بقوله (... إذ أن أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين ومن كان رومياً أو إفرنجيا قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني أو من أتى من الرايم أو شارتر أصبح الآن مواطناً في صور أو أنطاكيا وقد نسينا الآن أمكنة ولادتنا فهي غير معروفة لدى الكثير منا الآن. واتخذ البعض زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السوريات أو الأرمنيات بل وحتى من الشرقيات فلدينا هنا أحفاد وأولاد أحفاد ويلجأ الناس إلى استعمال التعابير والبيان من لغات شتى في التحادث بينهم فأصبحت الكلمات من اللغات المختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل أمة) (٨٩).

وهذا النص يوضح مدى التحول الذي طرأ على حياة الفرنج الذين جاءوا إلى الشرق فتأثروا بأهل البلاد وعاشوا معهم وعرفوا لغتهم وتحدثوا بها وتزوجوا من الفتيات الشرقيات. وقد نتج عن العلاقات التي قامت بين المسلمين والفرنج خلال فترة

الحروب الصليبية تأثر الفرنج بالمسلمين ونقل الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي فالمؤرخ الفرنسي جوزف ميشود يرى أنّ الاتصال الذي حدث بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية أدى إلى تطور العلوم والآداب في أوروبا (٩٠).

ويذكر ابن شداد أن بعض الفرنج أتقنوا اللغة العربية (٩١) فإلمام الكثير من الفرنج باللغة العربية أثّر على ثقافتهم مما أدى بدوره إلى نقل جوانب من الحضارة الإسلامية إلى أوروبا (٩٢). ، ويعبر أسامة بن منقذ عن تأثر الفرنج بالمسلمين بقوله (فكل من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدواً وعاشروا المسلمين) (٩٣).

وهذا الوصف يدل على أن احتكاك الفرنج بالمسلمين أدى إلى تهذيب أخلاقهم وإقامة علاقات طيبة تربطهم بأهل البلاد مما حدا أحد أمراء الفرنج للقول (أن القتال بين المسلمين والفرنج انتحار أخوي) (٩٤) وإن كان هناك تحولاً في نظرة الفرنج للمسلمين إلا أنه لا يمكن تعميم ذلك على جميع الفرنجة.

ومن جوانب تأثر الفرنج بالمسلمين أنهم أخذوا يبنون بيوتهم و قصورهم على الطراز الإسلامي المتلائم مع ظروف البلاد فسكنوا البيوت ذات الأفنية الفسيحة التي تتوسطها برك الماء والنوافير وأشكال أخرى من الزخرفة الإسلامية (٩٥). كما اتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتفق مع الروح الشرقية العربية فاصطنعوا السجاد واستخدموا المصنوعات الدمشقية من الأوعية النحاسية وأناروا بيوتهم بالشمع المشبع بالطيوب حسب عادة المسلمين. كما تأثر رجال الفرنج ونسائهم بالمسلمين حيث قلّد رجال الفرنج المسلمين في لبس العمامة والكوفية العربية بدل الخوذة (٩٦).

ويشير يعقوب الفيتري إلى ذلك بقوله (... وأطلق بلدوين كونت الرها لحيته على النمط الشرقي) (٩٧). أما المرأة الفرنجية فقد تأثرت بنساء المسلمين في كثير من الأمور فأصبحت تلبس لباس الشرقيات، ويعبر ابن جبير عن تأثر نساء الفرنجة في مدينة أنطاكيا بنساء المسلمين بقوله (وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين فصيحات الألسن منقبات خرجن في هذا العيد (عيد الميلاد) وقد لبسنّ ثياب الحرير المذهبة وبرزنّ لكنائسهنّ حاملات جميع زينة نساء المسلمين) (٩٨). وقد اتخذت نساء الفرنج لزينتهن المجوهرات الدمشقية والقاهرية وأدوات التطرية من المساحيق والخضاب(٩٩).

ومن مجالات تأثر الفرنج بالمسلمين إقلاع البعض عن أكل لحم الخنزير تأثراً بالمسلمين واعتمادهم على المسلمات للقيام بمهمة الطبخ ويورد أسامة بن منقذ ما يدل على ذلك بقوله على لسان صديق إفرنجي له عندما وصف المائدة التي قدمها بقوله (فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة فرآني متوقفاً عن الأكل فقال

لي: كل طيب النفس فأنا ما أكل من طعام الفرنج ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير) (١٠٠).

ومما يُؤثر عن تأثر الفرنج بالمسلمين في الشرق أنهم أقبلوا على الحمامات إقبالا كبيراً فقصدوها في أوقات فراغهم للراحة والنظافة (١٠١) ولم يقتصر ذلك على الرجال بل كانت النساء تتردد على الحمامات بكثرة وهذا ما يؤكده يعقوب الفيتري بقوله (فهناك بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمام ثلاث مرات في الأسبوع تحت حراسة صارمة) (١٠٢)

ويورد أسامة بن منقذ الكثير من الروايات المتعلقة بالحمامات وتوسع في سرد ما يدور داخلها (١٠٣).

ومن مجالات تأثر الفرنج بالمسلمين قيامهم بنقل زراعة بعض المنتجات الزراعية إلى بلادهم كزراعة السكر والليمون والسمسم وغيرها من المنتجات الزراعية كما قام الفرنج بنقل صناعة الصابون إلى أوروبا (١٠٤).

وبذلك نجد أنّ التواصل الحضاري بين الشرق والغرب خلال فترة الحروب الصليبية ساهم في ازدهار الحياة الزراعية والصناعية والتجارية في الغرب الأوروبي.

وخلاصة القول أنّ ميزان القوى أثرّ على طبيعة العلاقات التي قامت بين المسلمين والفرنج سواء كانت علاقات دبلوماسية أم اقتصادية، ويبدو أنّ هذا ما جعل بعض الكتاب يميلون إلى وجود علاقات سلمية أو تعايش سلمي بين المسلمين والفرنج. وعليه لا بد أنّ نقر بوجود هذه العلاقات ولكن دون أن نعمم ذلك على طيلة فترة الحروب الصليبية. فمن غير المعقول أن يكون هناك علاقات سلمية دائمة بين المحتل وصاحب الأرض. وخاصة أنّ هذه الفترة شهدت صراعاً دائماً بين المسلمين والفرنج، انتهى بخروج الفرنج من آخر معاقلهم في الساحل الشامي على يد المماليك سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م. لتنتهي بذلك صفحة مؤلمة من صفحات الاحتلال الفرنجي للمدن الشامية.

الخاتمة:

وهكذا تبين لنا أنّ الطابع العام للعلاقات بين المسلمين والفرنج هو الصراع الدائم وكراهية كل طرف للآخر؛ ودليل ذلك حركات المقاومة الإسلامية الشديدة للوجود الفرنجي على الأراضي الإسلامية منذ أن وطأت أقدام الفرنج الأراضي الإسلامية وحتى تم تحرير جميع الأراضي الإسلامية من قبضة الفرنج. حيث بدأت الصحوة الإسلامية في عهد عماد الدين الزنكي الذي قاد حركة الجهاد ضد الفرنجة وانتهت في عهد المماليك

الذين استطاعوا إنهاء الوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي مع نهاية القرن ٧ هـ/ ١٣م.

ولكن تخلل فترة وجود الفرنجة في الشرق الإسلامي قيام علاقات دبلوماسية وأحيانا علاقات سلمية أو ما يطلق عليه بعض الباحثين اسم (التعايش السلمي) في فترات محدودة، وكان ذلك كنتيجة طبيعية أملتها احتياجات كلا الطرفين لقيام علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية فيما بينهم. حيث تخلل هذه الحروب الكثير من الهدن في فترات زمنية محدودة، كما قامت بينهما تعاملات تجارية؛ وهذا الأمر طبيعي فالفرنجة كانوا مشغولين في حروبهم مما جعلهم بحاجة للعنصر البشري للعمل في مجالات الزراعة والصناعة والبناء، وغيرها من النشاطات اليومية التي كان الفرنجة يحتاجونها في الإمارات التي أسسوها في الشرق الإسلامي.

ولكي نكون منصفين ولا نحمّل النصوص أكثر مما تحتمل علينا أن نُقر بأنّ سياسة التسامح والاعتدال التي حدثت بين الطرفين كانت خلال فترات محدودة ولا نستطيع تعميمها لتصبح هي السمة الطاغية على تعامل كل منهما مع الآخر. أما وصف الرحالة المغربي ابن جبير لطبيعة العلاقات بين الطرفين عندما زار بلاد الشام خلال الفترة (٥٧٨ هـ إلى ٥٨٢ هـ) بقوله (والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب) فهذا لا ينطبق على طبيعة العلاقات بين الطرفين بشكل عام وإنما كان وصفا للعلاقات خلال فترة زمنية بسيطة أثناء زيارته لبعض المدن الشامية خاصة أنّ رحلته للمدن الشامية قصيرة أي أنّ تعميم ما جاء عند ابن جبير من وصف للعلاقات بين الطرفين بعيداً كل البعد عن الحقيقة التاريخية.

الهوامش:

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٤٧.
٢. المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٨.
٣. المصدر نفسه ، ج٥، ص ١٤٧.
٤. فوشيه دي شارتر(Fulcher de Charter) (451-521 هـ / ١٠٥٩ – ١١٢٧ م) ، المعروف بالشارتري وهو رجل دين رافق روبرت النورمندي أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. وألف كتابا عن الحملة الصليبية الأولى من خلال معاصرته لأحداثها. حماد، منى، تطور الكتابة التاريخية في الغرب عن الحروب الصليبية من القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ص٢.
٥. فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٠٥.
٦. المصدر نفسه، ص ١١٨.
٧. المصدر نفسه، ص ١٥٢.
٨. المصدر نفسه، ص ١٩٧.
٩. المصدر نفسه، ١٩٩.

١٠.وليم الصوري،(٥٢٤- ٥٨١ هـ/ ١١٣٠- ١١٨٥ م) وهو رجل دين معاصر للأحداث ويعدّ من أشهر مؤرخي الحروب الصليبية وهو صاحب كتاب (A history of Deeds Done Beyond The Sea). منى حماد ، تطور الكتابة التاريخية في الغرب عن الحروب الصليبية من القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ص ٤.

١١.وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٢٧.

١٢.رحلة الحاج سايولف، ص ٤١.

١٣.رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة، ص ١٠٧٥.

١٤.سعيد البيشاوي، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين، ص ١٤-١٥.

١٥.دانيال الراهب ،وصف الأرض المقدسة ، ص ٤٨.

١٦.المصدر نفسه ، ص ١٠٤-١٠٦.

١٧.أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢،ص١٥٨.

١٨.المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

١٩.المصدر نفسه، ص ٢٤٧- ٢٨٤.

٢٠.أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٤٠، ص ١٥٢.

٢١.المصدر نفسه، ص ٨٧.

٢٢.المصدر نفسه، ص ١٣٩.

٢٣.المصدر نفسه، ١٥١.

٢٤.مدينة القيصرية: وأوردها ياقوت باسم (قيسارية) وهي بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين.

انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٧٨.

٢٥.فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١١٥.

٢٦.مدينة نيقية: من أعمال إسطنبول على البر الشرقي

انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ٣٨٤-٣٨٥.

٢٧.وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٠٥.

٢٨.مدينة المصيصة: وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٦٩.

٢٩.وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٤٠.

٣٠.المصدر نفسه، ج١، ص ٣٥٩.

٣١.معرة النعمان: وهي مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٨٢.

٣٢.ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٨؛ محمد الشاعر، أحوال المسلمين، ص ٦.

٣٣.ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢.

٣٤.فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٧٤- ٧٥؛ محمد الشاعر، أحوال المسلمين، ص ٦.

٣٥.فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٧٥.

٣٦.يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ٤١.

٣٧.ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢.

٣٨.ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٨٣-٢٨٤.

٣٩.سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢، ص ٧٤٣.

٤٠.البيشاوي، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنج ، ص ٣٦٦.

٤١.ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥.

٤٢.المصدر نفسه ص ٢٣١.

٤٣.المصدر نفسه ، ص ٢٦٢.

٤٤.ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣، ص ٧٦.

٤٥.أبو شامة ، عيون الروضتين، ج ٢، ص ٣٣؛ والخبر ذكره الذهبي، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٥٠.

٤٦.الذهبي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧.

٤٧.ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٤.

٤٨.المصدر نفسه ، ص ٢٩١.

٤٩.المصدر نفسه ص ٢٢٢.

٥٠.ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٩ ، ص ٧٢.

٥١.الذهبي، دول الإسلام، ج ٢ ، ص ٩.

٥٢.فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١١٤.

٥٣.المصدر نفسه، ص ١١٥.

٥٤.ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص ٣٣.

٥٥.للمزيد من المعلومات حول أعمال أرناط المعادية للمسلمين انظر: غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص ١٢٣-١٣٦.

٥٦.ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٩.

٥٧.ميخائيل جميعان، المؤثرات الثقافية الشرقية، ص ١٤٨- ١٤٩.

٥٨.فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٠٣.

٥٩.المصدر نفسه، ص ١٠٦.

٦٠.المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٦١.وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٠٥.

٦٢.ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٣.

٦٣.البنداري، سنا البرق الشامي، ص ٣٩.

٦٤.احمد رباح ، دور التجار الأوروبيين ، ص ١٥.

٦٥.ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص ٥١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٦٤.

٦٦.مدينة زَمَنيّة: مدينة من أعمال حمص ويقال أنها بلدة عند طرابلس من سواحل الشام: انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٦٣.

٦٧.ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦٤.

٦٨.المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

٦٩.البنداري، سنا البرق الشامي، ص ٩٠؛ عبد الله الربيعي، أثر الشرق، ص ٣٤.

٧٠.ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٤.

٧١.شقيف ارنون: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من ارض دمشق بينها وبين الساحل. انظر: ياقوت معجم البلدان، ج٣، ص ٤٠٣.

٧٢.ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٩٧.

٧٣.المصدر نفسه، ص ٣١.

٧٤.يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ١٤٢.

٧٥.المصدر نفسه، ص ١٠٥.

٧٦.المصدر نفسه، ص ٥٨.

٧٧.بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص ١٧٣.

٧٨.ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٢، ٣٣.

٧٩.ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٣، ٢٢٤

٨٠.أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥١.

٨١.المصدر نفسه، ص ١٥٣، ١٥٤.

٨٢.المصدر نفسه، ص ١٥٩.

٨٣.المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص ٢٥٦.

٨٤.أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥٢.

٨٥.ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٨٧، ٥٨٨.

٨٦.عبد الله الربيعي، أثر الشرق، ص ١٢٢.

٨٧.غوانمة، التجارة وسياسة الاعتدال، ص ٩-١٠.

٨٨.زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص ١٤٠.

٨٩.فوشيه الشارتري، تاريخ الرحلة إلى القدس، ص ٢١٨-٢١٩؛ عبد الله الربيعي، أثر الشرق، ص ٤٤.

٩٠.منى حماد ، تطور الكتابة التاريخية في الغرب عن الحروب الصليبية، ص ٩.

٩١.ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٩٧.

٩٢.حسين عطية، المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ص ٢٧- ٢٨.

٩٣.أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥٣.

٩٤.زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص ١٤٥.

٩٥.المرجع نفسه، ص ١٤٦؛ ميخائيل جمعيات المؤثرات الثقافية الشرقية، ص ١٥١.

٩٦.ميخائيل جميعان، المؤثرات الثقافية الشرقية، ص ١٥٣.

٩٧.يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ١٠٩.

٩٨.ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦١.

٩٩.المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

١٠٠. أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٦٠.

١٠١. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية، ص ١٥٠.

١٠٢. يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص ١٠٦.

١٠٣. أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥٥، ١٥٦.

١٠٤. خليل الزركاني، العلاقات الاقتصادية في الحروب الصليبية، ص ٧ -٩.

قائمة المصادر والمراجع

١. المصادر العربية:

- ابن الأثير، علي بن محمد، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)،الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.
- ابن أبي أصيبعة، احمد بن القاسم، (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- البنداري، الفتح بن علي، (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، سنا البرق الشامي، اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق فتيحة النبراوي، مطبعة الجيلاوي، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين، (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة المصرية، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن جبير، محمد بن احمد بن احمد، (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، بيروت.

- الذهبي، محمد بن أحمد، (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨ م)، دول الإسلام ، تحقيق حسن مروة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م.
- سبط الجوزي، يوسف بن قزاوغلي ، (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان، مجموعة نصوص اختارها وحققها سهيل زكار، ج٢، دار حسان، دمشق.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢ م.
- ابن شداد، يوسف بن رافع، (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن العديم، عمر بن أحمد، (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٤م، (الجزء الثاني).
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد، (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر أبو الفداء الدمشقي، (ت ٧٧٤ هـ /١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط ٧ ، ١٩٨٨ م.
- ابن منقذ، أسامة بن مرشد، (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، دار الأصالة، الرياض، ١٩٨٧م.
- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. المصادر الغربية المعربة:

- بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، مراجعة وتدقيق مصطفى الحياري، دار الشروق، عمان، ١٩٩٥م.
- دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين (١١٠٦-١١٠٧ م)، ترجمة سعيد البيشاوي وداود إسماعيل، دار الشروق للنشر، عمان، ٢٠٠٣ م.
- سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة(١١٠٢-١١٠٣م)، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م.

- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠م.
- وليم الصوري،(ت ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م) الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.
- يعقوب الفيتري (ت ٦٣٩ هـ/١٢٤١ م)، تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨م.

٣. المراجع العربية:

- جميعان، ميخائيل، المؤثرات الثقافية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية، المطبعة الاقتصادية.
- الربيعي، عبد الله، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، الرياض، ١٩٩٤م.
- الشاعر، محمد فتحي، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، منشورات مكتبة دار الثقافة، العراق، ١٩٨٩م.
- غوانمة، يوسف، أمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.
- النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٨م.

٤. الدوريات والمؤتمرات:

- البيشاوي، سعيد، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.
- البيشاوي، سعيد، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد ١٥، ٢٠٠١ م.
- حماد، منى، تطور الكتابة التاريخية في الغرب عن الحروب الصليبية من القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.
- رباح ، احمد، دور التجار الأوروبيين في دعم وتوجيه الحملات الصليبية، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.

- الزركاني، خليل ، العلاقات الاقتصادية في الحروب الصليبية، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.
- عطية ، حسين ، المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.
- غوانمة ، يوسف ، التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج في عهد صلاح الدين ، رؤية من خلال رحلة ابن جبير إلى بلاد الشام، ندوة بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩١- ٦٩٠ هـ) ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.
- المدني ، رشاد ، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين والأجانب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، المؤتمر الخامس لكلية الآداب تحت عنوان(القدس تاريخا وثقافة)، الجامعة الإسلامية، غزة ، ٢٠١١ م.